Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 12:2-3-4 (1977)

فلسفة ''اقبال''

الاستاذ نجيب الكيلانى
— (من كتابه : اقبال الشاعر الثائر)

لكل فكرة تخطر على بال أى انسان دوافع . . ولكل فلسفة تنبع فى عقل اى عبقرى بواعث واسباب . . و كثير من الفلاسفة قد أدخلوا عنصر الالهام ضمن هذه البواعث .

والآن ما هى بواعث فلسفة اقبال والدوافع التى اشعلت هذه الفلسفة فجعلتها ملتهبة كالنار، حمراء كالدم، قوية كالسيول الجارفة، نابضة بالحيوية والخلود ناطقة بالامل والتفاؤل .

لقد نظر اقبال حواليه، فما ذا رأى ؟

المسلمون يرتعون فى بيداء الجهالة، و يضربون فى فيافى الغفلة، والاسلام الناصع الحى أصبح عنوان الذلة والفقر والضياع : تلوثت عقائده بفعل الكائدين والمخادعين، وجرى العبث فى شرائعه بفعل المتزمتين، لذا أصبحوا محكومين بعد ان كانوا حاكمين، واسسوا رعايا مستعبدين بعد ان كانوا سادة اشرافا، وتلفت اقبال حائرا وكأنى به يقول . اذا فهذا هو الحال وياله من مآل تعس.

ترى ماهو الداء الذى نخر فى اجساد امتنا و شعوبنا، فاورثنا سوء المآل، و ذل الحياة ؟ و كان اول داء وقعت عينه عليه هو ان المسلمين يخافون الموت، ويحرصون على الحياة بعد ان صاروا مزقا واهواء، ونحلا متباينه .

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الذاتية: فلا بد اذا ان يعودوا الى ''ذاتهم،، ، لانها مصدر الحركة والعمل ومصدر النور والحياة، و مركز الانسانية و مدار الخلود، يجب ان يعود الانسان الى ''ذاته،، يقويها و يدعمها، و ينفى عنها الخوف والجبن والحرص الغبى، و يردها الى طريق الحق، و هكذا آمن اقبال ''بالفردية،، او ''الذاتية،، لانها الاصل ومنها البداية، واهمال الذات هو الجهل بأصل الداء . . . **وأس البلاء .**

التوحيد: وشئ آخر أدركه اقبال : ان الناس يهابون الحكام و يخافونهم، وليت الامر وقف عند هذا الحد، لكن هذا الخوف و تلك الهيبة أصبحت ضربا من العبودية المقيتة، و نوعا من التأليه السخيف، فلا يكاد يرتفع صوت باستنكار، أو تنادى عقيرة باحتجاج، أو يقف انسان ليعترض على باطل . . لذلك صار العسف فريضة، والقانون هوى متبعا، والمثل العليا سطية للأغراض والشهوات الجامحة، فليس عجبا أن تذل النفوس، و تصبح أشد طغيانا من الجاهلية الأولى، غير أنأوثان الجاهلية الأولى كانت من حجر أو خشب، أما الأصنام الحديثة فمن لحم ودم، ويصف اقبال هذه الحالة قائلا : ''ان الأصنام ما زال المسلمون يعبدونها حتى اليوم، وان ادعوا الايمان بالله، وان لهذه الأصنام صورا عديدة، و ألوانا شتى، و ياحبذا لو علم المسلم الذى ينشد الهداية أن سجوده فى الصلاة لله وحده، خير له وأجدى عليه من هذا ''الشرك الحديث،، !

وأن السجود لله هو الخير و النجاة، وان كان ثقيلا علينا :

تلون فى كل ثوب (,,مناة،،) (١) وشاب بنو الدهر وهى فتاة

فهذا السجود الذى تجتويه به من ألوف السجود نجاة

---

(١) مناة صنم كان يعبد فى الجاهلية !

فما معنى كل هذا ؟

لا معنى له الا أن المسلمين قد شاب عقيدتهم كثير من الفساد والضلال، فشوهت عقيدة التوحيد فكان أن اتخذوا من قصور أمرائهم و حكامهم و مستعمريهم معابد يطوفون حولها، و يجثون بأبوابها، و يمرغون شرفهم و كراستهم ومجدهم فى ترابها، كما أنهم قصدوا أضرحة الاولياء، وأقبية الموتى، و حثوا اليها المطايا، وزفوا اليها الركبان ضارعين مستغفرين لذنوبهم، ولا ذنب الا خمولهم راجين الشفاء والعافية والأرزاق، والشفاء أقرب اليهم من حبل الوريد .

و تيقن ''اقبال،، أن المرض الثانى والداء العضال الذى انتاب المسلمين هو فساد التوحيد .

ترك العمل ، باسم القضاءوالقدر : أما الشئ الثالث الذى علمه اقبال فقد كان مؤلما حقا :

ان المسلم اذا نظر لهوان حاله، وضعة قدره، صدمته الحقيقة المرة وهاله الأمر الواقع، وبدلا من أن ينفض عن كاهله غبار التقاعس و التقاعد، و يقفز من جديد الى سلم المجد والكفاح، تراه يقول : وماذا أعمل ؟ مابيدى حيلة، هذا قضاء الله وقدره وتلك ارادته و مشيئته، و ليس على الا الرضوخ والاستسلام لأمر الله، فهل أتمرد وأثور على سنن الله وارادته ؟ لا شك أن هذا خبال وسوء أدب و مروق و فسوق . هكذا يقول المسلم لنفسه دون أن ياخذ للأمر عدته، يصاول الحياة و يصارعها، كى يهزم صعابها، و يتغلب على عقباتها، حتى يصل الى المرتبة التى أرادها الله له !

و فكر اقبال فى هذا الداء الجديد، أو الداء الثالث، و بعد أن فهم أعراضه و مضاعفاته شخصه قائلا : ان هذا هو التواكل . فالمسلمون ينسون ان لهم ارادة سضمونها الحرية والاختيار لا الجبر و القهر والارغام، و أن الانسان مخير لا مسير .

واذا شئت أن ترى كيف عرض اقبال هذه الصورة فى حوار شعرى بديع أخذه عن ((محي الدين بن عربى))، — فانظر هذه القصيدة التى يدور فيها الحوار بين الله سبحانه و تعالى و بين ابليس فى حضور الملائكة .

ان ((ابليس)) يظهر أولا ايمانه بوحدانية الله وقدرته، ثم ينفى عن نفسه الكبر و المروق و يقول : يارب اننى لم أسجد لآدم الا لأنك كتبت فى علم غيبك أننى لن أسجد فما ذنبى ؟ فيرد عليه الخالق سبحانه بما يفحمه و يربكه، فيقول سبحانه : هل عرفت ذلك الأمر و هذا القدر المكتوب قبل أن تعصى أم بعد العصيان ؟ فلا يسع ابليس الا الاقرار بجرمه، والاعتراف بذنبه،

وأنه ليس بريئا سن تحمل المسئولية، وها هى ذى القطعة شعرا كما ترجمها المغفور له الدكتور عبدالوهاب عزام :

ابليس :

يا الها أمره كن	ليس عنه سن محيد
و يل غر سن زمان	و سكان فى حدود
كيف أستكبر عن	أمرك أو كيف أحيد ؟
كان فى علمك أنى	حائد عن ذا السجود

الخالق :

هل عرفت السر هذا　　قبل أو بعد الحجود ؟

ابليس :

بعد، يا من من تجليه　　كمالات الوجود

الخالق : (ناظرا الى الملائكة)

خسة الفطرة فيه　　علمته ذاك عذرا

قال : ماشئت سجودى　　أنا لا أملك أمرا

ذلك الظالم سمى　　اختيارا فيه جبرا

انه سمى رمادا　　شعلة فيه و جمرا

التمتع بالحياة لمليئه بالنضال والكفاح : و اقبال الذى أراد أن يكون طليعة ايقاظ، ورسول بعث ثائر فى هذه الاسة، قد هاله أمر عظيم و موضوع ذو خطر، هو أن المسلمين ينظرون الى ما يعتريهم من آلام، و يكتنف حياتهم من نكبات، ينظرون الى ذلك كله على أنه عنوان للحظ المنحوس، و سوء الطالع، و يحسبون أن الحياة السهلة الهينة، والنعمة السخية الوفيرة هى الدليل الأوحد على رضا الله وحبه لعبده، ورحمته به . . لقد أغمض المسلمين أعينهم عن منابع دينهم الأولى، ونسوا أن الله قد يختار أقواما، لابتلائه، حتى يرى ماذا سيكون من شأنهم حينما تدلهم الخطوب وتبلغ القلوب الحناجر، ونسوا أن المؤمن الحق يشكر النعماء، و يحمد الله على الضراء و يصبر عليها، و يظل يعمل و يكافح حتى يخرج من محنته، من و قد ازداد معدنه نفاسة، وجوهره قيمة وقدرا !

و هذا هو الداء الرابع ! فالمسلمون يستنكفون من الحياة التى يهزها الكفاح ويملؤها النضال، و يهربون من تحمل الصعاب والآلام، و ينشدون السكون والدعة ولو عاشوا فى أكناف العبوديه وخمول الذكر، حتى لكأن الحياة لقمة سائغة، و قنطره سهلة ميسورة . . .

أما الداء التالى فقد كان لا يقل خطورة و أهمية عما قد سلف من أمراض . . ففى هذه الظروف العصيبة وجدت فئة من الناس أدركت الهاوية السحيقة التى تدهور اليها مستقبل الأمة، فهالهم ما رأوا، وأتعسهم ما جد من أمور، كان الظن بهم أن يمدوا الى هؤلاء المترددين أسباب النجاة كى يأخذوا بناصرهم، و ينقذوهم من بؤرة الشقاء، لكنهم كانوا على عكس ذلك تماما، فقد انقسموا قسمين :

مكافحة اليأس والرهبنة : القسم الأول :

راوده اليأس القاسى، فلم يجد مناصا من أن يسد أذنيه باصابعه، حتى لا يصل الى سمعه نداءات الضائعين، و استغاثات الهائمين على وجوههم فى أودية الأسى، ويا لها من جريمة !

والقسم الثانى :

قبع فى الصوامع، وودع العمران والسكن، و عاش يعبد الله راهبا قانتا لله ونأى بنفسه عن مهاترات الدنيا و معارك الحياة، و قنع بخلوته الضيقة عن العالم الرحيب، وأغمض عينيه عن أضوائه البراقة المضطربة التى لا تعرف الثبات والهدوء . و أمسك اقبال بقلمه ليسطر التشخيص للداء الخامس ''اليأس والرهبنة،،.

و لكم صرخ اقبال فى هؤلاء الواهمين ذوى الآفاق الضيقة، كى يعلمهم أن من لم يذق طعم الآلام لا يستسيغ حلاوة الراحة، و من لا يتمرغ فى أعطاف الصراع والكفاح لا يدرى جلال السلام والحرية، و من لا يتناول جرعات من الشقاء لا يدرك جمال السعادة، لهذا نراه يقول :

ان حباب خمرة الآمال لا — يرقص الا فوق أمواج الألم
والله فى حكمته علمنا — أن انشراح الصدر قبله ألم
آلا منا الى العلا أجنحة — نعلو بها فوق سطارات النسور
الروح سر والحياة ظلمة — و شعلة الآلام للأرواح نور

هذا بعض ما قاله اقبال فى اولئك الذين ضاقوا ذرعا بالآلام، و تكاليف الكفاح واعتبروهما لعنة سماوية، و غضبة من الله قد انصبت عليهم، أما اولئك اليائسون الذين فقدوا الأمل . . و أماتوا الرجاء فقد قذفهم اقبال بأمثال السهام الفتاكة حين قال ما ترجمته :

منحت القلوب هياما جديدا — أثرت البعيد به والقريب
ولكن خلقت بأرض بها — نفوس العبيد برق تطيب

و شهر سيف القول فى وجه هؤلاء اللائذين فى حمى الصوامع والكهوف و الخلوات، و كأنه يقول لهم لا تفروا من المعركة، ولا تهربوا من الحياة التى خلقتم لها و خلقت لكم، فتراه يقول :

خلا الصوفى من حرق و كد — شراب (ألست) معذرة البطا له (١)
وفر الى ترهبه فقيه — يرى فى الشرع معترك البساله
اذا خشى الرجال وغى حياة — فتلك هى الهزيمة لا محاله !

---

(١) يقصد آيه : ((الست بربكم . . الخ)) والمعنى ان الكسالى يلقون بأحمالهم على الله ويلوذون بالخمول . . .

''فالصوفى،، الذى تواكل محتجا بالآية ''ألست بربكم،، و ''الفقيه ،، الذى ودع الحياة الى دنيا الصوامع والعزلة، كلاهما هرب من الميدان، و أشفق من تكاليف الجهاد، فدهمنا الاستعمار، و استغلنا الحكام، ولم يكن لنا أن نجنى غير الهزيمة !

و كان خاتمة المطاف، و آية البلاء، و شر الداء تلك النزعة العاتية المجنونة التى تتجه ناحية الغرب و ثقافته و حضارته دون فحص أو تمحيص و مطالبة الناس بالأخذبهادون قيد أو شرط غير مراعين فى ذلك ظروف البيئة، والأحوال الاجتماعية، والتقاليد المرعية، والمعتقدات الدينية، و دون النظر الى التراث المحلى الذى تناقلته الأجيال فى شتى ضروبه وألوانه و مظاهره، فانبثت تيارات الالحاد والزندقة، و شاعت موجات الانحلال و عدم التقيد بشئ من القيم التى توارثوها، و ظنوا أن كل ما أتى به الغرب جميل نافع سواء فى النواحى المادية و غير المادية، ولم يدققوا فى وسائل الحضارة الغربية ولاأهدافها، أوالركائزالتى تعتمد عليها لأن الشعوب كانت جائعة الى هذا المتاع المادى، والرقى العلمى، و الترف الظاهر بعد أن أنهكها الفقر، و حطمتها الحاجة، وألهثها الطغيان والفساد، وآلمها الجمود والرجعية، فكان أن اندفعت هذا الاندفاع الأرعن، وانساقت هذا الانسياق الأعمى . . و أوشكت أن تنسى أن للروح مطالب كما أن للجسد رغبات .

رأى اقبال ذلك وهو الشاعر المؤمن، والفيلسوف الدراس، والعالم العامل الذى جاب أنحاء أوروبا، وارتاد جامعاتها و منتدياتها، و درس تاريخها و قوانينها و مكتشفاتها و مفاسدها و مفاخرها، فرفع (اقبال) يده عاليا فى وجوه الحشود الحمقاء، التى أسلمت قيادها للغربيين دون قيد أو شرط، و قال الكثير من شعره فى ذلك الموضوع و خلاصته أن سلام العالم ورفاهيته يتوقفان على التوفيق بين

حضارة الغرب والشرق، و حضارة الشرق تبتغى فيما آتاها الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبها من الدنيا، و توافق بين العاطفة والعقل، والوحى والعلم، والمادة والروح، وهاك قطعة مترجمة من شعره فى منظومة ''جاويدنامه،، تظهر هذا المعنى :

فى الغرب ''العقل،، مصدر الحياة .

و فى الشرق ''العاطفة،، قوام الحياة .

وبواسطة الحب ''العاطفة،، يحيط العقل بالحقائق .

فيعزز شغل الحب . . انهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد .

بالتوفيق بين العقل والعاطفة ! الخ . .

وضع اقبال هذه الأدواء الستة أمام عينية .

و فكر اقبال، فكرا كثيرا فى الحياة وكنهها، وفى مقاييس الهزيمة والنصر و معايير القيم والمثل العليا، وفى الخلود وحقيقته، و كان غاية تفكيره و بحثه ايجاد عالم رشيد، وانسانية مترابطة حانية، و حياة رخية سعيدة، و جال ببصره عبر الأجيال وحقب التاريخ، حيث راى الاسلام، الرسالة الخالدة بين المد والجزر، و بين الارتفاع والانخفاض، ثم تلفت الى العالم الغربى الذى ساد و شاد، و حارب و ملك، بعد أن سفك الدماء وأهدر المثل، فهز اقبال رأسه، وهو موقن أن البداية يجب أن تكون من الانسان نفسه، من ذاته، ذاته القوية التى لا تتيه فى الآفاق، و لكن الآفاق هى التى تتيه فيها، لان كل ما خلق فى هذا العالم مسخر لتلك

الذات القوية الناسية :

انما الكافر حيرا ن له الآفاق تيه (١)

وأرى المؤمن كونا تاهت الآفاق فيه

ولقد جعل اقبال بداية فلسفته، و نهايتها : الايمان بالله واتخذه أساسا .

و بعد هذا العرض السريع لبواعث فلسفة اقبال، ماهى اذا هذه الفلسفة ؟

و سأجيب عن هذا السؤال فى حذر و اقتصاد، و ايجاز بعيد عن التعقيد والمصطلحات العلمية، لأننا الآن بصدد الكلام عن شعر اقبال و فلسفته من ناحية معينة، و من زاوية خاصة تتعلق بحركة البعث الكبرى، التى اهتزت لها جنبات الهند و تغير بها مصيرها .

و خلاصة فلسفته انها اسلامية، و تحمل فى ذراتها طاقة البعث لهذهالأمة الراكدة، واضواء الاستكشاف وأشعة المعرفة التى تزيل الظلمات والغياب، الناسجة خيوطها حول هذه الملة البيضاء .

هناك فريق من الصوفيين يؤمنون بوحدة الوجود، ويرون ان الفردية وهم و عبث وانانية و غرور و ليس لها وجود حقيقى على ظهر البسيطة، بل الحقيقة ان الكائنات وحدة مرتبطة، لهذا فهم يرون ان غاية الانسان الاندماج الكلى في الوجود، كما تندمج القطرة الضئيلة في البحر الخضم الواسع، او الذرة المتناهية الصغر في كثبان الرمل العريضة الهائلة، و من هنا كان مذهب الفناء فى الله كما يفنى الشعاع الواهى الضعيف، فى دنيا لانهاية لها من الاضواء والانوار .

و كذلك آمن اصحاب مذهب الفيلسوف ''هيجل،، بنظرية الوحدة هذه اعمق الايمان . . .

---

(١) ماخوذة عن ابن عربى فقد قيل ان مرضعة الرسول لمافقدته لقيها جبريل وقال لها : لاتخشى عليه ان يتيه فى الآفاق : فهذه الآفاق تتيه فيه .

وقف اقبال ازاء هؤلاء وهؤلاء وغيرهم، وقال :

''لا . . . بل هذا الزعم هو عين الوهم و عين الخيال والضياع .

ان هذا الظن مدعاة لذوبان الشخصية وانهيار الذات، وخمود الحياة وخمولها، واساس للضعف والوهن، والارزاء التى اجتاحت الامة و بدلت حالها .

''ان كل انسان له كيان و وجود و شخصية قائمة بذاتها، و مميزة عن غيرها تمييزا جليا واضحا . .

الا ترون ان الله واحد وان اتصف بكل كمال و تنزه عن كل نقص ؟

الا ترون أن الكائنات — اى هذا الوجود الكبير بما فيه — مجموعة من الفرديات المتباينة ذات الخصائص المعينة، فهنا اشجار و نبات، و هناك طيور و حيوانات والاشجار فيها الخوخ والحنطة و الصفصاف، بل ان النوع الواحد تختلف افراده فى صفاتها . . . انظروا الى الانسان — هذا اسود و ذاك اصفر، و هذا سقيم و ذلك سليم . . .

و رغم ان لكل انسان — او كائن — شخصيته وذاته الا ان بين هذه الوحدات او الفرديات نوعا من التوافق، و ضربا من التطابق، و شيئا من النسق والنظم، ولا شك ان سعينا الغريزى، و كفاحنا الفطرى يجعلنا دائما تتقدم الى الامام، و ينقلنا تدريجيا من الفوضى الى النظام او بمعنى آخر يخلق بيننا ذلك التوافق و ذلك التطابق و ذلك النسق والنظم .

و نحن دائما فى حاجة الى الكفاح والسعى المتصل، و نحن فى طريقنا الى الكمال المنشود، والمثل العليا المرسومة، و هذا السعى وهذا الكفاح هما عمل

الكائنات، و عمل الاجيال المتلاحقة، و كل جيل عبارة عن حلقات نضالنا فى سبيل الوصول للكمال، فعمل الكائنات اذا مستمر متصل، لا متناه . فالكائنات اذا حقيقة غير كاملة، فأنا وأنت لبنة مميزة فى بناء الوجود الكبير، و كل لبنة تتعاون، مع أختها، و تبذل قصارى جهدها و طاقتها، حتى يظل البناء شامخا قويا لا يتزعزع ولا يرتج، بل يكون دائما فى ازدياد مطرد من حيث القوة والمتانة، و من حسن السمو والارتفاع .

انا فرد ذو شخصية مميزة .

و أنت فرد كذلك بذاتك الخاصة .

والغير كذلك . . . .

لكننا نتعاون و نتضامن و نكافح كى تقوى ذات كل منا، لكى يسعد الكون و ترتقى الانسانية، و يصل الى درجة الكمال الاسمى، و من هنا سميت فلسفة اقبال بفلسفة الذات او ''خودى،،.

و لقد ضرب لنا اقبال مثلا عن فرد، و عن كيفية سلوكه مع المجموع :

هو فى المجمع خال و من الحشد طليق
مثل شمع الحفل فى الحفل وحيد و رفيق
مثل شمس الصبح، فكر فيه نور و بريق
لفظه حر يسير لكن المعنى دقيق
نظر فيه سديد عن بنى العصر سحيق

انه وان كان فى مجمع من الناس، الا أنه متميز بثاقب فكره، و حدة نظره، و حريته فى قول الحق والعدل، مثل الشمعة التى تميزت بنورها ونارها، وان كانت

رفيقة الجميع، و فى خضم هذا الحفل الحاشد. فما تعريف الذات أو ''خودى،، عند اقبال ؟

هى حالة من الجهاد المتصل، والتوتر النفسى، والكفاح المستمر، وكل ما يطفئ فيها شعلة الحماس للعمل، و يخمد فيها ثورة التوثب، للنضال والسمو، فهوقبيح مرذول،اماالذى يقويهاوينميهاو يدفعها دفعاالى الامام، و يقربها الى الغاية، و يحفظ عليها حالة التوتر فهو جميل محبوب، ولأزيد القارئ ايضاحا أقول : ان الحياة اذا خلت من الاجتهاد والعمل و الحركة فهى موت وفناء، ولو كانت الحياة مجردة من الرغبة والعمل، فماذا يمكن أن يبقى فيها ليشوقنا اليها؟ هل يكون هناك من معنى او حكمة لتلك الكنوز من المعادن المخبوءة تحت الارض فى الطين والتراب، والتى تحتاج الى الحفر والجلد، كى نستخرجها ؟

لا خير فى حياة نقضيها فى صمت و جمود !

ولهذا قال اقبال :

ان الذات تقوى بتوليد المقاصد، وايجاد الرغبات و خلق الامانى، فاذا ما كان للانسان غاية يسعى اليها، فلا شك انه سيجد و يتعب للوصول اليها، ولا بدله أن يتغلب على ما يعترضه من عقبات، وما يدهمه من صعاب و يعالج أمرها بما أوتى من قوة، و صادق عشق(١)، لأن الغاية جميلة(٢) و تهون ازاءها كل الصعاب والآلام .

أما ((شوبنهاور)) الفيلسوف الغربى فقد رأى أن الحياة نهايتها الموت، وأنها طمع و جشع، والانسان لا تقف آماله عند حد، انه جائع دائما ظامئ دائما، و طموح دائما، يتوق الى المجد، و يتشوق للتسلط والسيطرة، وماذا بعد ذلك ؟

(١-٢) سنتكلم عن العشق و الغاية فيما بعد .

إما أن يئوب بالحسرة والفشل، فيسخط و يلعن سوء الحظ، و فساد الطالع، و قسوة الأقدار، أما اذا نال شيئا، و حقق أمنيته، فلن يستمتع بها أكثر من أيام أو سنوات معدودة، أو عمرا قصيرا، ثم يعقب ذلك قبر يفغر فاه ليلتهم الفريسة، و يحطم كيانها و يسحق عظامها، و يمتص دماءها، و كأن لم تكن شيئا، لكن اقبال ثار على زعمهم هذا، و كأنى به يقول لهم :

و يحكم ! أمن المعقول ان يخلقنا الله عبثا ؟ أمن المعقول أن تظل الشمس والسموات والأرض مدى الدهر و طول الأبد، ثم نندثر نحن بهذه السرعة فلا تقوم لنا قائمه بعد ذلك ؟

كلا، ان الخالق سخر لنا الكواكب والشمس و القمر و مختلف الكائنات، و سخر القوى المادية لنتوسل بها الى ما نريد، و نتخذها مركبا يسرع بنا نحو الغاية . اذا كان هذا العمر الطويل من نصيب هذه الاكوان المسخرة لنا فما بالك بنا — و نحن اشرف قدرا، و أعلى منزلة منها — أنمضى هكذا سريعا و نودع الحياة الى غير رجعة ؟ ليس هذا صحيحا .

هناك شئ اسمه الخلود !

أجل، الخلود !

فنحن أسمى من أن تكون حياتنا وسطة زمنية قصيرة لا رجعة لها، و نحن أيضا أعظم من أن نذوب و نتماع فى بحر الوجود العريض ! . .

وما الموت الا البرزخ الذى نتخطاه الى عالم الخلود، وما القبر الا الزورق الصغير الذى يحملنا الى شاطئ السلام الاخضر الأبدى، فالجسم قد يبلى أو قد يموت الا أن ''الذات،، تأبى الممات، و ترفض الفناء، لأنها خالدة :

ان صانت الذات المتينة نفسها
أعيت على الأيام كل سمات

ولقد وصف اقبال عقيدته تلك و عقيدة أفلاطون — التى تشبه عقيدة شوبنهاور — فقال :

أفلاطون : يبصر الموت عاقل، فحياة
كشرار بجنح ليل يشب

اقبال : ما الى الموت والحياة التفات
مقصد ''الذات،، رؤية الذات حسب

ان ''أفلاطون،، يرى الحياة كالشرارة الخافقة فى جنح الظلام، سرعان ما تلفها أكفان العدم، أما اقبال، فلا يلتفت الى حياة أو موت، بل جل همه أن تقوى ذاته، و تظل فى مدارج سموها و رقيها حتى تحظى برؤية الذات المتكاملة المنزهة، التى لا شبيه لها، ألا وهى الذات الالهية : ففى ظلالها يرفرف الخلود — و تقف الغايات والآمال، و لذلك يقول اقبال :

''غص فى البحر، و حارب الأمواج، فان خلود الحياة فى الكفاح !،،

ثم يضرب اقبال عشرات الأمثلة التى ينتزعها من الطبيعة التى أحبها، ليدلك على قضية الخلود، فيقول ان انطفاء النجوم يشير بانبلاج الصبح، و تبديد الظلام، مثل موتنا الذى تعقبه الحياة الخالدة، وانتهاء عهد البراعم بداية لعمر الزهر :

فناء ملايين النجوم مبشر
باضواء شمس فى السماوات تولد

و نوم الردى سكر سيعقب نشوة
بخمر حياة فى الخلود تجدد

و توديع أيام البراعم مؤذن
بخلق الزهور الباسمات جميلا

و صنع هذا الكون بالخلق دائر
فانى أرى فيه السكون محالا

و ليس سوى التغيير فى الكون ثابت
يغير حالا ثم ينشئ حالا

ان البذرة يدفنونها فى ظلمات الأرض، و قبر التراب فهل تراها ماتت، و غشاها البلى ؟ و هل انطفأت نيران حياتها، مع طول بقائها فى ظلمات الأرض؟ كلا . . . لقد ألقت عن كاهلها ثقل الموت، واستعادت حياتها من جديد، و توشحت بأجمل الابراد، واحلى الأثواب و خلقت من موتها حياة جديدة :

لقد دفنوا فى التراب البذورا
فلم تفن فى لحدها الهامد

ولم تنطفئ نارها فى الحياة
على طول مرقدها البارد

لقد نسجت للحياة القباء
وصاغت من الزهر أبهى حلاه

نما غضنها زاهرا و استعادت
من الموت تجديد ذوق الحياة

و اذا كان للخلائق ناموس يرينا الصباح بعد المساء

فكذا تذهب الحياة ولكن

بعد ليل الحمام صبح البقاء !

ان من يظن ان تلك الحياة ايام معدودة، لن يكترث بعبودية أو حرية، بل سيقبل الحياة على علاتها، اذ كل همه أن تمر مرورا، و تندثر اندثارا، ما دامت بلاغاية ولا فائدة ترجى من ورائها، فكان لزاما على اقبال أن يخنق تلك التيارات القاتلة القذرة فى مهدها، فأخذ العدة لذلك و تهيأ بالسلاح ألا وهو فلسفته الخالدة ''فلسفة الذات،، التى ذكرها فى ديوانه ((أسرار الذات)) ! . .

العشق : ثم ماذا يقصد ''اقبال،، بكلمة العشق، التى تتردد كثيرا فى شعره ؟

يقول الاستاذ أبو النصر الهندى :

''ان العشق فى مفهومه المطلق هو الشئ الذى يقوى الذات و ينميها، ويدفعها الى الكمال الخالد، والعشق معناه جذبك الشئ أو طلبك اياه، لتجعله جزءا من نفسك، و أسمى صور هذا العشق و أعلاها و أفخمها هو توليد المقاصد، هو خلق القيم و الغايات، ثم العمل على تحقيق هذه المقاصد والآمال،،

و لقد دلل اقبال على أن هذا العشق بمفهومه الحق يدعنا نؤمن أيضا بمذهبه فى الفردية، لأنه يعتقد أن العشق يجعل الطالب فريدا والمطلوب فريدا أيضا، فكيف ذلك ؟ انك اذا طلبت أو عشقت شيئا و تمنيته فان غيره لا يرضيك ولا يروى غلتك، لذلك فان ما تطلبه و تقصده فهو فريد فى ذاته — مثلك تماما — اذ أن غيره لن يقوم مقامه فى اشباعك وارضائك .

فالعشق — كما ألمحنا سابقا — يقوى الذات، والاستجداء يضعفها، و يهرق ماء حيويتها و كيانها .

انه وقود يثير الحركة والتدفع، و يشعل الحماس ويؤجج العاطفة . . .وهو الطاقة التى اذا انطلقت لم تعقها السدود ولا القيود، لأن الذات العاشقة فوق الزمان و المكان، وهى القدر وهى القضاء، فاستمع الى اقبال وهو يتحدث عن معراج الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول : ان الذرة الضئيلة الهزيلة اذا سرى فى كيانها الشوق لاقت الصقر القوى الجسور، ساخرة منه هازئة بقوته ، فيفر من أمامها، ولا عجب فى ذلك فان الحماس قد قلب أنفاسها الوادعة الى شرر متقد، و هكذا المسلم الحق اذا اعتصم بالشوق والعشق، و كانت له غايات و مقاصد، أصبح كالسهم المنطلق الذى تسمو غايته عن التوافه والصغائر، فهى غاية لا شبيه لها غير الكوكب، فى علوها و فى المعراج أسرار هذا العشق، و مغزى قوة الروح العاشقة :

وذرة طار فيها الشوق صاعدة
تغير فى عرصات الشمس و القمر

يا رفقة المرج . . تلقى الصقر مقدمة
دراجة تملأ الأنفاس من شرر

المسلم السهم، والأفلاك غايته
سرائر الروح فى المعراج فادكر

ان الأنسان — بعاطفته الممزوجة بالعشق، و بقلبه المملؤ بالشوق — يرى مالا تراه العين المجردة، و يدرك ما لا تدركه الحواس الظاهرة !

و العشق هو الذى يثير الرغبة فى الكائنات، و يوقظ فيها جمرة الحياة، فتحس بنعمتها وجمالها و روعتها، و غاية العشق تقوية الذات ورقيها، والسير

بها قدما نحو الحرية والكمال الخالد، و غاية العلم أن يبرز لنا قليلا من الصفات التى قد لا تثبت على حال ولا يستقر لها قرار، لأن العلم محض تساؤل حائر، و فى شك دائم، و لكن العشق جواب رائع لاستفساراتنا و تساؤلنا، حقا انه جواب خاف على بعض المغرورين والمخدوعين و النائمين، لكن تدركه القلوب الواعية، والأرواح المتوثبة الذكية .

ألا ما أروع العشق وأحلاه ! ألا يكفى أن تكون معجزته ملكا خالدا، و سلطانا سامقا تعنو له الكائنات ؟ ولا أدل على بزوغ هذا الملك ورسوخه من ذلك الفقر الغنى، و هذا الدين — دين الله — الذى يسبغ الحب والسعادة على الوجود .

لقد علمنا العشق أن الرضوخ للراحة والاستسلام فى جوف المنازل و على الفراش الوثير فى شرعته حرام، و علمنا أيضا أن ركوب الأهوال واستطاء الاخطار و اقتحام الصعاب، و مغالبة أمواج البحر، و مصارعتها هى الحلال فى سنته، الواجبة فى شريعته، وما عدا ذلك : من راحة واخلاد للهدوء والسكون، — فهو ضعف، و وهن لا يرضاه الله، ولا تقره شريعتنا الغراء :

قال لى العلم غرورا ''انما العشق جنون،،
قال لى العشق مجيبا ''انما العلم ظنين،،
لا تكن سوس كتاب يا أسيرا للظنون

فمن العشق شهود

و من العلم حجاب

من لهيب العشق ثارت ثورة فى الكائنات

و شهود الذات للعشـ ق، و للعلم الصفات
و من العشق ثبات و حياة و سمات
علمنا سؤل جلى
عشقنا خافى الجواب

معجزات العشق ملك زانه فقر و دين
و عبيد العشق أدناهم له عرش سكين
و من العشق زمان و مكان و سكين(١)
انما العشق يقين
و به يفتح باب

ألفة المنزل فى شرع من الحب حرام
خطر البحر حلال راحة السرب حرام
خفقة البرق حلال و فرة الحب حرام
علمنا نسل كتاب
عشقنا أم الكتاب

و يلاحظ أن اقبال لم يغمط العلم حقه بل أثبت له فائدته العظيمة، وجدواه التى لا نستطيع أن ننكرها، و ليس هذا بغريب من اقبال الذى كان عالما كبيرا و فيلسوفا مقداما، غير أنه أراد لهذا العلم الكافر أن يعلن ايمانه بالله، و يسير جنبا الى جنب مع العشق أو الإلهام، فيسعد كل منهما بجوار الآخر، و يسعد العالم من جراء ذلك الوئام . فالعلم وحده مضل كافر مغرور، لا غنى له عن الدين كى يكبح جماحه، ولا غنى له عن العاطفة الطيبة، كى ترقق حاشيته، فاذا كان مع هذا العلم عشق و ايمان و قلب ، فسينتج من هذا كله ابراهيم جديد، يحطم

---

(١) هو من يحل فى المكان، وهو لا يستعمل فى اللغة العربية كثيرا.

أصنام الضلال والفسوق والعصيان :

العلم ان لم يضف نجوى الكليم الى
رأى الحكيم فما للعلم من قـــدر

لكن كيف يوجد العشق ؟

ان ذلك يكون — كما قال اقبال — بحبنا النبى صلى الله عليه وسلم، لأن محمدا كانت سيرته و أخلاقه المثل الأ على، و كان بأقواله وأعماله الانسان الكامل فى الحرب والسلم، مع الأصدقاء والأعداء، و بمعنى آخر كانت أخلاقه القرآن، و متى فهم الانسان هذا الفهم عن محمد صلى الله عليه وسلم و وعى كنه رسالته التوحيدية السامية، ثم أتبع الفهم والوعى بعشق صاحب هذه الأفضال والمميزات، فقد علم مدى العشق و معناه عند ''اقبال،، .

ولا شك أن حبك لمحمد صلى الله عليه وسلم، و عشقك اياه سيدفعك حتما الى السير فى طريقه، واقتفاء أثره فى حياتك، و هذا هو الهدف .

و يقول اقبال فى ذلك :

''كل من يكون متاعه عشق المصطفى صلى الله عليه وسلم، يكون البر والبحر فى طرف ذيله .

و لفلسفة ''اقبال،، مراحل ثلاث :

هذه المراحل الثلاث يجب أن يمربها الانسان حتى يصل الى الغاية التى كان اقبال ينشدها وهى خلافة الله فى الأرض .

المرحلة الأولى : التى يجب أن تمر بها ''الذات،، هى خلق المقاصد، و توليد الرغبات، و هذه هى صفة الحياة والدافع اليها، فالحياة بلا هدف ركود

و موت . لقد بين القرآن للحياة الانسانية مقاصد، وحد حدودا، و جعل للانسان الاختيار والاجتهاد، غير متعد هذه الحدود و هذه المقاصد، و الحدود لا تتبدل فهى حقائق أبدية، و قيم للحياة خالدة .

فالحياة اذا آمال متفتحة نابضة، و غايات نبيلة سامية .

أما المرحلة الثانية لتطور الذات وارتقائها فهى مرحلة النضال المستمر والكفاح المتصل، أو الجهد الذى لا ينى . . . لما ذا ؟ لتحقيق الغايات والأهداف والمقاصد، التى تحدثنا عنها فى المرحلة الأولى . . فلن تموت أمة — أو فرد — اذا ما اعتصمت بالكفاح والصبر، ولن يهلك شعب اذا ما تسلح بالجد والمثابرة، ولن تبلى حضارة اذا ما تحصنت بالعمل الخصيب المنتج، والروح القوية الملتهبة . و على الانسان أن يسخر الكائنات المادية الطبيعية، كى تساعده فى كفاحه هذا، و أن يتخذ منها وسائل و مركبات، ليستعين بها على العقبات والمشاق . فما هذه الأكوان الا من أجل الانسان و خدمته، وما هذه العوالم المادية الا رهن مشيئته، لهذا يقول اقبال :

الأرض لا تخفى حقيقة جوهرى
أنا مقصد التقدير فى الأكوان

و حقيقتى نـــور فمالى سابحا
فى لـــجة الظلمات والأشجان

أنا أمـــة فيما أريـــد لأمتى
و ولايتى دنيا مـــن الأجيال

وأرى بمنظـار الحقيقة كل مـا
يبديه فى الحق الصريح خيالى

فاخلق لروحك من زئيرك نشوة
فى المجد ترهب فى العرين أسودا

واجعل نشيدك قول ربك ''لا تخف،،
حتى يهاب البرق منك رعـودا

و العشق أو الهيام، هو وقود هذه المرحلة الهائلة .

ولقد شرط اقبال هذه المرحلة بثلاثة شروط : لكل شرط منها مغزاه و معناه فى تقوية الذات و تربيتها، و من المفيد أن نذكر هذه الشروط الثلاثة، قبل أن ننتقل الى المرحلة الثالثة :

(١) الشرط الأول : هو الطاعة والانقياد لاوامر الله سبحانه، والعمل على تنفيذ ما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، لأنه هو الخالق الاعظم، الذى يدرى كنه تكويننا، و سر خلقنا، و دقائق طبيعتنا، و خفايا سلوكنا، و مشاعرنا و عواطفنا . ثم انه — جل و علا — العليم بما ينفعنا، و البصير بما يضرنا، والحكيم الذى لا يخطئ فى تقدير، وشتان بين قدرة المخلوق الضعيف الواهى و عظمة الخالق القوى الجبار .

ولا شك أن طاعة الانسان لربه اذا كانت عن عقيدة ثابتة و ايمان راسخ فهى تملأ القلب سعادة ونورا، و تغمره حيوية و اشراقا مما يسهل عليه تكاليف هذه المرحلة و نفقاتها — مرحلة الكفاح و النضال .

فلو تصورنا مجتمعا شأن كل أفراده طاعة الله، والعمل فى حدود شرائعه و أحكامه، فسنجد أن مثل هذا المجتمع لن يحدث فيه تصادم المنافع الخاصة،

و تصارع المكاسب الفردية ، بل سيكون مجتمعا متفاهما متوائما يعيش فى ظل المودة والسلام و يستمرئ الكفاح والنضال .

(ب) الشرط الثانى : هو ضبط النفس، و هو وثيق الصلة بالشرط الأول . . . ان النفس لها نوازع و أغراض، و تحتدم فيها مشاعر و مطالب و تعتمل فيها شهوات و رغبات، فلو أطلق لها العنان، فسارت بلا كابح يكبحها، أو منظم ينظمها و ينسقها، — كانت النتيجة الحتمية شرا و بلاء .

لهذا كان الضرورى أن يوضع لهذه النفس الحدود التى تلزمها الجادة، والرياضة التى تعودها على السلوك المستحب، والنظام المرغوب فيه، و ليس هذا معناه كبت الغرائز، و الحكم بالاعدام على الطبائع الفطرية، و انما المقصود من ذلك تهذيبها، أو اخراجها فى ثوب لائق، و ابرازها بطريقة منظمة مشروعة، والمحافظة عليها، و توجيهها الوجهة السليمة التى تدفع الى الامام دائما، فتساعد ولا تعوق، وتسمو ولا تنحط .

بهذا يتم التعادل والتوازن على وجه ما، فى تلك الذات التى يحتشد فيها كثيرين الصفات المتناقضة المتضادة، و بغير هذا الشرط — ضبط النفس — يحدث التنافر و التضارب بين صفات الذات ومقوماتها، فتكون النتيجة سيئة .

ولا بد أن اقبال قد فكر كثيرا فى معنى الحديث النبوى الشريف الذى قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه حينما عادوا من الحرب : ''رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر،، قالوا : ''وما الجهاد الاكبر يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟،، قال : ''جهاد النفس،، .

(ج) نيابة الله فى الأرض ، و نيابة الله لاتعني الحلول محله سبحانه،

لأن ذلك يستلزم خلوالمحل وانعدام شاغله أولا، كما يقول الفلاسفة و انما يعنى بنيابة الله القوة التنفيذية التى تتولى اجراء حدود الله و شريعته — أحكام القرآن — و هذه القوة التنفيذية، تتحلى بالعدل والرحمة، و بعد النظر والايمان العميق، و تتجلى فى الذات الكاملة القوية، التى تعتبر كل ما يقويها خيرا محضا وكل ما يضعفها شرا محضا، و يصور اقبال الذات فى هذه المرحلة تصويرا دقيقا فيقول — ان الذات آنذاك ستكون خالدة باقية، و ليست كلمحات النجوم الفانية، وان محضرها و غيبتها كلاهما خير و بركة، وانها بريئة من العبودية والرق لغير الله، فتصبح الذات سيدة للانس والجن، ولا غرابة فى ذلك، فهى مكان النيابة لله عزوجل .

رأيت الكواكب لمحات نور — و ذاتك ''بالعشق،، رهن خلود
تعالى ضميرك عن كل لون — فعفت من اللون كل القيود
و غيبة ذاتك ذكر و فكر — و محضرها شعرها و النشيد
اذا أضنت الروح آلام رق — ففنك عبد رهين سجود
وان عرفت قدرها كنت حقا — على الانس والجن رب الجنود

و بانتهائنا من الشرط الثالث، ناتى الى المرحلة الثالثة ، هذه المرحلة هى مقام المؤمن الكامل، صاحب الارادة والاختيار، الذى يغلب الدنيا ولاتغلبه، و يقهر الوجود ولا يقهره، ولا يهاب الموت بل يبتسم له، و يعتبره البرزخ الى عالم الخلود الأبدى، انه المؤمن الذى يسخر الكائنات، و يخضع له الوجود، و يملك الكثير من عرض الدنيا، لكنه لا يستهويه او يغريه او يستعبده، بل هو مع ملكيته للدنيا طليق منها ، حرمن قيودها واغرائها ، وهو مايعبر عنه ''اقبال،، بالفقير أو القلندر (الدرويش) انه سلطان الوجود فى حوزته الكثير، لكنه فى غنى عنه،

لهذا قد يكون الانسان ملكا ذا خدم و حشم، و مال وفير، و سلطة محدودة، لكنه ''بذاته،، القوية القانعة فقير أو قلندر، و هذا معنى كلمة الصمد، وهى احدى صفات الله تعالى .

و مثل هذا المؤمن الكامل يظل يصعد فى مدارج السمو والرفعة، محاولا أن يتصف بصفات الله، و محاولا التقرب بصفاته الربانية الى الذات المطلقة، ذات الخالق الأعظم، و هذا مصداق الحديث : ''تخلقوا بأخلاق الله ،،. و مصداق الآية : ''كونوا ربانيين. . . ،،

عندئذ اذا نطق هذا المؤمن الكامل، الذى يشق طريقه اللانهائى الى الكمال، اذا نطق فبالصدق، و اذا اتى عملا كان صوابا، و اذا حكم حكما، كان عدلا و حقا، و اذا دقق النظر، ادرك حقائق الاشياء . فعن ابى هريرة رضى الله عنه فى حديث قدسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ''من عادى لى وليا آذنته بالحرب، وما تقرب الى عبدى بشئ أحب الى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه، فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به، و بصره الذى يبصر به، و يده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، و لئن سألنى لأعطينه ،ولئن استعاذ بى لاعيذنه،، . رواه البخارى .

تلك هى المرحلة الأخيرة لتربية الذات ،والجماعة التى تتكون من أفراد، تلك صفاتهم، هى الأمة المسلمة الحقة، فالأمة المسلمة فى نظر ''اقبال،، مجموعة من الذوات الكاملة أو التى فى طريقها الى الكامل، و مثل هذه الأمة جديرة بقيادة البشرية الى سبيل السلام والنور والحب و الخير: ''كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر، و تؤمنون بالله،،

و فى مثل هذه الأمة المثالية يقول اقبال :

''انها تعلو فوق الأمم . لانها أمة نيطت بها الامامة فى الدنيا والآخرة،، فهى لا تنى عن مواصلة أمور الخلق ، لأن النوم و التعب محرمان عليها . انها فى البساتين عندليب حسن التغريد، و فى الصحارى باز خفيف سريع الانقضاض . الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطانا، كما أن الفقير فيها أمير على الرغم من كونه ''درويشا،،.

وفى قصيدته ''طلوع اسلام،، يقول : أنت يد قدرة الله أيها المسلم وأنت لسانها . فهيا اخلق يقين الهمة ولا تعش أسير الأوهام . ان الدنيا تفنى و لكنك أعظم خلودا من الدنيا . لك مجد الازل، ولك نعيم الأبد أيضا، و أنت رسالة الله الاخيرة فى الأرض، لذلك فأنت موصول الدوام . اقرأ مرة أخرى فى سيرتك الاولى، اقرأ دروس الصدق والعدل والشجاعة ، لانك انت المنشود لتسود العالم مرة ثانية . هذه هى مقاصد الفطرة الأولى، ورمز الاسلام الحقيقى : أن تملك العالم بالأخوة و تحكمه بالمحبة : ما الذى محا استبداد قيصر و شدة كسرى ؟ أكانت هناك فى العالم قوة تحارب الجبابرة سوى قوة على، و فقر أبى ذر، وصدق سلمان ؟ ان نظرة المؤمن تغير الاقدار .

تلك هى الخطوط الرئيسية لفلسفة اقبال، فلسفة القوة والبعث والأمل والتحرر والخلود .

فهل كانت هذه الفلسفة دواء للأمراض القتالة التى انتابت الأمة الاسلامية المضيعة أم لا ؟ و هل استطاع اقبال أن ينفخ فى نفير البعث، فيوقظ النيام و يحيى الرميم ؟

— مـــع الشكر

—:—:—:—